

البلاغة العربية بين منهجي اللغة والأدب

بقلم محمد سعيد

- ١ -

به هذه الدراسة ، وبذلك فصرت عن نادية دورها في تفسير النصوص ونفوسها ، وتمثل عناصر الجمال او العيوب فيها . واخيرا انقدم بما اعقد انه الحق في تقييم هذه التركيبة البلاغية ، وذلك بمقابلة اهم مباحثها بمنهج دراسنا الحالية للغة والادب ، لنضع هذه المباحث في مكانها الذي يجب ان تكون فيه ، لنخرج عن جمودها التقليدي من ناحية ، ولأودي دورها - دراسة وعملا - في موضعها الحقيقي من ناحية اخرى . . . وما علي ان أكون مصيبا او مخطئا في ذلك ، فانه - على كل حال - رأي يستند الى دراسة علمية متطورة في اللغة والادب، وربما قد جانبني فيه التوفيق ، ولكني مجتهد !!

- ٢ -

لقد مرت الدراسات البلاغية قبل السكاكي بمستويات مختلفة من حيث الهدف والكيفية ، ذلك ان هذه الدراسات قد نشأت اولا - شأنها شأن غيرها من العلوم العربية - لخدمة القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه من المفردات والاساليب العربية . باستقراء ذلك وتصنيفه، ويوضح هذه الحقيقة ان اول اثر بلاغي بين ايدينا هو « مجاز القرآن » لابي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) ثم استمرت هذه الجهود العلمية الرابطة بالقرآن بعد ذلك في القرون الثلاثة التي تلت مجاز ابي عبيدة، وكلها محاولات لفهم القرآن ومعرفة سر اعجازه - فعلى طول هذا الطريق تطالعنا كتب مثل « ناول مشكل القرآن » لابن قتيبة (ت ٢٧٦) و « النكت في اعجاز القرآن » للرمانى (ت ٢٨٤) و « اعجاز القرآن » للباقلاني (ت ٤٠٢) وغير ذلك من المجهودات الطيبة التي وان لسم يحدها علم منظم او تفكير مقنن ، فانه يجمعها كلها انها تنجس الى ذلك الاثر الخالد - القرآن - في محاولات متتابعة لدراسته ، وان كانت هذه الدراسة في مجملها ذات طابع عام متناثر ، ترتبط بالجزئيات اكثر من ارتباطها بالنص الكامل . ومحاولة تحليله وتفسيره وحدة واحدة ، للانتهاء من ذلك بغضاي فنية عامة يعتد بها في النص القرآني ، وفيما عداه من النصوص الفنية الاخرى ، كما رأينا ذلك لدى بعض الدارسين في العصر الحديث من دراسة « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » وغيرها .

وفي نفس الوقت قامت دراسات بلاغية اخرى ، لم تكن ذات صبغة دينية ، بل كان لها استقلال في موضوعاتها واهدافها اختلفت مستوياته على مدى الزمن ، وبدأت هذه الدراسات مبكرة ايضا بصحيفة بشر بن العتير (ت ٢١٠) ومتجاوزة مع الدراسات البلاغية القرآنية السابقة، وظلت متجاوزة معها طوال القرون الثلاثة التالية للصحيفة المذكورة مع اختلاف نموها وقيمتها في كل قرن على حدة .

وفي القرن الثالث الهجري اختلطت الدراسات البلاغية بدراسات اخرى غير ادبية ، ضمتها كتب عامة موسوعية الطابع ، اهمها « البيان والتبيين » للجاحظ (ت ٢٥٥) والكامل في اللغة والادب للمبرد (ت ٢٨٥) وهي كتب غير مختصة في موضوعاتها ، ولا في هدفها العام اذ تحوي اخبارا واشعارا ، ودراسات في البلاغة وغيرها من مسائل الادب واللغة - وفي القرن الرابع اختلطت دراسات البلاغة بالدراسات النقدية القديمة ، وكانت الهدف هو الحديث عن الادب بصورة عامة ، كما نجد ذلك في « عيار الشعر » لابن طباطبا (ت ٢٢٢) و « نقد الشعر » لقدامة ابن جعفر (ت ٢٣٧) وتنبع قيمة هذه الدراسات - على ما فيها من عيوب - من اعتمادها - ولو نظريا على النصوص الادبية ، ومن تخصص مصطلحاتها التي كانت عامة فيما سبق .

وكان اقصى مد وصلت اليه الدراسات البلاغية - قبل السكاكي

البلاغة العربية ، بعلمها الثلاثة - البيان والمعاني والبديع - جانب مهم مما ورثناه من نافتنا العربية القديمة ، ولقد جاءت هذه الاهمية من سمات القداسة التي تعودنا ان نصفها - دون تثبت او تقويم - على كل ما جاءنا من تراننا القديم ، وهكذا ظلت علوم البلاغة الى اليوم تفرض على عقولنا هذه الاهمية التي تنبع من القدم اكثر مما تنبع منها نفسها ومن مسابرتها لروح التطور اللغوي والادبي الذي يفرض علينا مسابره والافادة منه افادة حقيقية يمكن استخدامها في مجال الواقع المتطور باستمرار ، والذي يفرض علينا مواجهته بأسلوبه، سواء في مجال النقد او في مجال الانجاء الادبي .

ولقد احسست وانا اتلقى دراسة علوم البلاغة منذ قريب - كما احس بذلك كثيرون غيري - ان هذه الدراسة لا نفيدنا فكريا ولا وجدانيا ، ولا تنمي ثقافتنا او شعورنا ، وان الموضوع كله صناعة آلية ذهنية تدور في اطار تجريدي بعيد تماما عن متطلبات العصر ، وروح الادب ، اذ نجح الدراسة البلاغية - كما هي عليه الان - الى ايراد قواعد نحفظها عن « مفنضى الحال » و « التشبيه المفرد والمركب » و « المجاز » و « الاستعارة التمثيلية » و « الكناية » و « الخبر » و « الانشاء » و « الفصل والوصل » و « الايجاز والاطناب والمساواة » وغير ذلك من الابحاث التي تدور في اطار الصناعة البلاغية ، وهي مشهورة ومتداولة .

واكبر دليل يحسه الدارس عن تمكن « الصناعة الالية » في هذه الابحاث هو جمود الامثلة والشواهد فيها ، اذ ان كتب البلاغة - حتى ما الف حديثا فيها - تكرر نفس الامثلة التي اوردها علماء البلاغة السابقون ، نفس الامثلة التي اعتمد عليها السكاكي منذ القرن السادس والسابع الهجريين ، وابعه فيها دارسو البلاغة وشارحوها حتى العصر الذي نميش فيه - وهذه ظاهرة لا نجدها في علم البلاغة فقط ، بل نجدها كذلك في كثير من الدراسات التي تجمدت عند وضع معين مثل الدراسات النحوية والفقهية القديمة - وهذا يشير بدوره الى عيب خطير في دارسي البلاغة والباحثين فيها ، اذ لم ينوقف احداهم - الا الافلون - ليتساءل عن قيمة هذه الدراسة في ذاتها ؟؟ او عن قيمتها في ارتباطها بالواقع العلمي في الدراسات الادبية او الانتاج الادبي الدائم التطور والاستمرار ؟؟ « فلم تعد بلاغتنا تسابير التطور الجديد في اساليبنا التعبيرية ، حتى كادت تصبغ تاريخا فقهيا للغة في بعض العصور الاخرى ، بدلا من ان يبقى علما متطورا يخدم اللغة ، ويعكس احوالها ويسجل مراحل نموها . والواقع ان بلاغة اية لغة ينبغي ان تبقى علما مطا قابلا للنمو معها ، والا بعدت الشقة بينهما ، وانحطت شأن البلاغة » (١) وهذا ما حدث للبلاغة العربية اذ استمرت الدراسات الادبية واللغوية تتطور وبقيت البلاغة تنفرج - بفعل ما سنبينه من عيوب فيها - فبعدت الشقة بينها وبين غايتها . وراحت تمضغ نفسها في تلك القواعد الذهنية بشواهد الصناعية .

وهذا المقال العلمي محاولة نلمس فيها تاريخ الدراسات البلاغية بصورة مجملته ثم اهداف علوم البلاغة العربية - بعد ان تجمدت - كما قررها البلاغيون القدماء والمحدثون ايضا - ثم نحاول معرفة العيوب المنهجية التي بمدت بدراسة البلاغة عن ان تؤدي دورها الحقيقي في تفسير الادب وتذوقه ، ومنها وفيها يكمن سر الجفاف والعقم الذي منيت

(١) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٤٠

– في القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤) في كتابه « دلائل الإعجاز » فيه قدرة فنية عالية لفهم النصوص الأدبية وتحليلها متكاملة ، وعناية بدلالات الالفاظ وايحاءاتها مرتبطة بالاحساس العام بالنص ومدلوله – وهذا لم يحدث فيما سبق من دراسات – كما يفلح فيه التطبيق على نصوص القرآن والشعر والنثر .

بعد ذلك ... كان السكاكي (ت ٦٢٦) وفيه يقول ابن خلدون : ولم نزل مسائل الفن – البيان والمقصود كل علوم البلاغة – تكمل شيئاً فشيئاً ، الى ان مخض السكاكي زبدته ، وهذب مسائله ورتب ابوابه على نحو ما ذكرنا آنفاً من الترتيب ، والف كتابه المسمى « بالمفتاح » في النحو والصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض اجزائه ، واخذه المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه امهات هي المتداوله لهذا العهد ، كما فعله السكاكي في كتاب « التبيان » وابن مالك في كتاب « المصباح » وجلال الدين القزويني في كتاب « الايضاح » و « التلخيص » وهو اصغر حجماً من الايضاح (٢) .

اجل ... انه هو ابو يعقوب السكاكي !! الذي جهد دراسة البلاغة وفنن فواعدها وخلق الصلة بينها وبين الادب والنقود ، ودخلت دراستها – بسببه ومن بعده – مجاهل ضل فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، واثر كتابه كل التأثير فيمن تابعوه من الشراح والمختصين حتى العصر الذي نعيش فيه (٣) ، وهذا ما سيتضح بصورة اكبر فيما يأتي من فقرات هذا المقال .

– ٣ –

« البلاغة في الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » بهذه العبارة تنتهج وجوه البحث في دراسات علوم البلاغة الثلاثة بتفصيلاتها الكثيرة ، وتبدو براعة البلاغيين في ابحاثهم حول تفسير هذه العبارة وفهمها كي تشمل كل علوم البلاغة الثلاثة « والمراد بمناسبات الحال الخصوصيات التي يبحث عنها في علم المعاني ، دون كفيات دلالة اللفظ التي يكفل بها علم البيان . اذ قد تتحقق البلاغة في الكلام بدون رعاية كفيات الدلالة . بان يكون الكلام المطابق لمقتضى الحال مؤدياً للمعنى بدلالات وضعية ... نعم اذا ادي المعنى بدلالات عقلية مختلفة فسي الوضوح والخفاء . لا بد في بلاغة الكلام من رعاية كيفية الدلالة ايضا « (٤) فالمطابقة لمقتضى الحال تقتضي تعبيراً يؤديها واذا كانت دلالات الالفاظ في هذا التعبير وضعية على حسب عرف اللفظ فقط ، اختصت هذه العبارة – مطابقة الكلام لمقتضى الحال – بعلم المعاني ، اما اذا كانت تلك التعبيرات التي تؤدي هذه المطابقة مما تتدخل فيها الصنعة العقلية والقدرة البلاغية بحيث تختلف وضوحاً وخفاءً – لاحظ ان الخفاء لدى البلاغيين ابلغ – فان العبارة تشمل علم البيان ايضا ، اذ تختلف فيه مستويات التعبير بين الارتفاع والهبوط حسب حظها من الوضوح والخفاء ، وحسب حظ قائلها من القدرة على الصنعة – التي وصفت بانها عقلية – من حقيقة او مجاز ومن تشبيه او استعارة او كناية ، اذ تفاوتت رتب هذه الامور السابقة ، وما كل الا له مقام معلوم يقدره اهل الفضل من علماء البلاغة .

غير ان البلاغيين يكادون يتفقون بعد مجهود عنيف في شرح العبارة السابقة والدوران حولها وتقليبها على وجوها الممكنة وغير الممكنة باعمال العقول فيها على انها تشمل علمي المعاني والبيان – بل وعلم البديع ايضا – اذ « يسمى العلمان علمي البلاغة : لان لهمسا مزيد

اختصاص بالبلاغة ، اما في المعاني فواضح ، لان به يعرف ما يطابق به الكلام مقتضى الحال . والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، واما فن البيان فلان مفاده ونموته معرفة ما يزول به التعقيد المعنوي ، وهو مما يتوقف عليه البلاغة ... فزالته التعقيد المعنوي لا يتعرض له الا من له طموح للبلاغة « (٥) فما دام البحث في البلاغة .. وطموح اليها ، فلا بد ان يتناول هذا البحث في الواقع النفاوت في طرق التعبير وهو ما انبنى عليه علم البيان – بل ان الامر يشمل ما هو اكثر من ذلك وهو دراسة وجوه « الفهولة » والتفنن التي يحسن بها الكلام نتيجة الايقاع اللفظي والسلاعب بالالفاظ والحروف او اللوحات المعنوية الجزئية في المعاني وهو مما يزيد الكلام حسناً تحسن البلاغة .

فالعبارة التي امتحت بها هذه الفقرة – مطابقة الكلام لمقتضى الحال – هي المحور الذي دارت حوله ابحاث البلاغيين القدماء والمحدثين ايضا ، فابعوهم في نفس المصطلحات وشرحها وتحدثت تلك الابحاث في: ١ – علم المعاني : وهو ما يعرف به المعاني التي يصابغ لها الكلام ، وهي الدلالات العقلية المسماة بخواص التراكيب . ٢ – علم البيان : وهو ما يعرف به بيان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالات وخفائها . ٣ – علم البديع : وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام لفظياً ومعنوياً .

ولكن ... ما هي الفائدة التي تؤديها الدراسة البلاغية كما يراها البلاغيون؟! او بعبارة اخرى : ما اهداف هذه الدراسة التي يمكن ان يفيد منها الدارس من وجهة نظرهم؟! .

اولاً، في رصد هذه الفكرة ينبغي ان يصرح ان يصرح عن الحديث العام ذي الطابع الانساني اذ ان طبيعة هذا الحديث لا تفيد شيئاً محدداً ذا قيمة وذلك مثل « وعلم البلاغة اشرف انواع الادب فدرا واعلاها مكانة وخطراً ، لانه علم الاستخراج لاسرار البلاغة من معانها ، والكشف عن محاسن النكت المودعة في مكانها » او مثل « علم البلاغة نافع للاديب والناقد والمؤرخ ، ولكل كاتب أو متكلم أو خطيب أو مدرس ، فانه يثير السبيل امام هؤلاء جميعاً ، ويمهينهم على ان تكون آثارهم اللغوية مفيدة مؤثرة ممتعة تغذي العقل وتشعور والاوزان » (٦) فان المفاضلة بين علم وآخر لا تفيد شيئاً ، فليكن علم البلاغة اشرف فدرا واعلى مكانة او محروما من كلا الوصفين ، فهذا لا يهم ، ولا يدخل في نطاق البحث!! ولا أدري كذلك كيف تفيد البلاغة كل هؤلاء المذكورين وبخاصة المؤرخ!! والحقيقة ان مثل هذه العبارات العامة وامثالها لم تعد من سمات التفكير العملي المنظم ، بل لم تعد من سمات عصرنا على الاطلاق ، اذ لا تنمخض عن شيء له وزنه الحقيقي ودعائه العلمية الصحيحة .

ومع ذلك فمن الممكن ان نحدد اهداف هذه الدراسة بما نعتز عليه بين العبارات العامة والانثائية سواء في الكتب القديمة او بوابها من الكتب الحديثة . يقول ابن مالك « واذا حذف هذا العلم اطعمك على اعجاز نظم القرآن ، وعلى خفاء انصباغ نظمه في تلك القوالب ، ووروده على تلك المناهج والاساليب ، وادرك في نسج جيد الكلام على ما يشهد لك من البلاغة بالفدح المعلى (٧) فالهدف من دراسة البلاغة اذن يتحدد في أمرين هما :

اولاً : معرفة طريقة القرآن في نظمه ، وبالتالي الكشف عن سر اعجازه . ثانياً : معرفة الطريقة التي يكون بها الدارس بليفاً في نظفه ، بمسا يشهد له – كما قال ابن مالك – بالفدح المعلى . وقد فرر استنادنا « احمد انشايب » الفكرة الثانية بنفس المعنى مع اختلاف الاسلوب فقط اذ يقول :

« فقواعد البلاغة ترشدنا الى الانشاء الصحيح ، والى الطرق المختلفة

(٥) السابق ص ١٥٠ (مواهب المفتاح لابن يعقوب المغربي) .
(٦) العبارة الاولى من « المصباح » ص ٣ – والثانية من الاسلوب ص : ٩
(٧) المصباح ص ٣

(٢) راجع : معدنة ابن خلدون (تحقيق وافي) ج ٤ ص ١٢٦٥
(٣) يلاحظ ان دراسة البلاغة في جامعاتنا ومدارسنا لا زالت تسير على نفس الطريق الذي وضعه السكاكي وشرحه ، وتردد نفس الامثلة واللبواهد ولم يحدث بها تجديد فكري بل شكلي .

(٤) شروح التلخيص ج ١ ص ١٢٣ (الايضاح للقزويني) .
فقد لخص القزويني مفتاح السكاكي ، ونال هذا التلخيص ما لم يقله الاجل من الاهتمام والشروح الكثيرة ومنها مجموعة منبورة في كباب واجد بهذا الاسم .

في أحد الشروح « وفيما قاله المصنف نظر من وجهين ، أحدهما : أن الدليل المسوغ للحذف لا بد أن يكون دليلاً على تعيين المحذوف ، أما لفظياً كالمعين ، أو خارجياً كما في الجمل لاعتنى أصل الحذف ، فإن أراد أن العقل دل على أصل الحذف فليس ذلك دليلاً مسوغاً للحذف إلا لفرض الإبهام ، وإن أراد أن العقل دل على أصل الحذف ، والظهور دل على تعيينه ، فالدال حينئذ على المحذوف المعين وهو الظهور فالاولى أن يقال ظهور ارادة المحذوف دليل عليه ، وتارة يجوز العفل مع ذلك ارادة المنطوق به ، وتارة لا يجوز ، بأن يدل العقل على استحاله ارادته ، والثاني : أن قوله : أدلته كثيرة منها أن « يدل العقل » لا يصح ، لأن « يدل نعمل » ينحل الى « دلالة العقل » فكأنه قال أدلته الدلالة وهو فاسد « (٩) » .

هل فهمت شيئاً !! وإذا كنت قد فهمت ، فماذا يفيد ذلك في الفن والادب ! ، أو حتى - كما قالوا - في معرفة الإعجاز في الآية المجهدة تحت وطء هذه المذني الذهنية الفلسفية التي لاتقدم شيئاً غير التشويش والعياء .

إن السر الذي يكمن وراء هذا اللون من البحث ان كثيراً من الباحثين في هذا الدور المتأخر كانوا متكلمين ومناطقة ومتفلسفين قبل أن يكونوا أدباء أو نقادا ، فالسكاكي مكلم ، والتفازاني (ب ٧٩٢) متكلم ومنطقي ، له من الكتب « شرح العقائد » و « المقاصد في الكلام » و « شرح السمسمة في المنطق » والسريف الجرجاني علي بن محمد (ت ٨٢٦) أستاذ في البحث والجدل والفلسفة ومن كتبه « شرح حكمة العين » و « شرح كتاب الموافف في الكلام » وكان من الضروري اذن أن يعكس بكوينهم الذاتي - عن فصد أو غير فصد - على مجهودهم البلاغي فكانت تلك التركة البلاغية التي تعلم كل شيء الا البلاغة .

على أن فكرة « مقتضى الحال » نفسها التي فامت عليها دراسة البلاغة - كما سبق - فكرة دخيلة عرفت عن أرسطو ، وقد ذكر ذلك الدكتور ابراهيم سلامة - وهو مترجم كتاب : الخطابة لأرسطو - إذ قرر أن هذا مبدأ افره ارسطو ، فما كان يسمح أن يتكلم في الخطابة القضائية بما هو لائق بالخطابة السياسية ، بل طالب الخطباء بمراعاة الجنس والسن والحالة العقلية للسامعين فلا تكلم النساء بما يكلم به الرجال ، ولا يكلم الشباب بما يكلم به الشيوخ ، ولا يكلم الجاهل بما يكلم به المتعلم (١٠) ، ونتيجة لهذا السبب الرئيسي من عيوب البلاغة ، يجيء سبب آخر هو « قصور الدراسات البلاغية عن مجازة الادب » ذلك أن الادب فن ينطور باستمرار ، في موضوعاته وأشكاله وروحه وهذا يستدعي بدوره دراسة متطورة تلاحقه بالتفسير . . . والتنوير ، وهذا لم يحدث للبلاغة في عصورها المتأخرة ، لأن طبيعة دراستها - كما وصفنا - منفصلة عن الادب من ناحية ولأن الجهود بعد ذلك اتجهت للتخليص والشروح والحواشي من ناحية أخرى ، فلم تصبح المادة المدروسة هي الادب ، بل أصبح المدرس المشروح هو مجهودات السابقين المقيدة بنسوان محدوددة ، يرددها الخلف بعد السلف ، ولست اغالي اذا قلت : انها قد انخبت عن فصد لمصلح ميدانا للاخذ والرد والمجهود الذهني الرائع في غير ما يستحق البروعة!! ولو أوردت هنا بعض هذه السواند لكان فيها ما يشير اإتسامة الفيلظ ومرارة الاسف .

وهناك عيب ثالث في الاطار الذي وضعه البلاغيون لدراساتهم - غير الادبية - إذ لم يضعوا في اعتبارهم دراسة النص وحدة متكاملة ، بل جعلوا هذه الدراسة تدور حول المفردات والجمل منفصلة عن روح النص ومضمونه ، فالبحت في المعاني انما بحت في طرفي الجملة - المسند والمسند اليه - ثم بحت الجمل من حيث تقع موقع المفردات أو لا تقع فتوصل أو يفصل وكذلك نجد ابحاث البيان من تشبيه واستعاره وكناية ليست الا جملة واحدة أو كالجملة الواحدة اذا كانت تشبيها مركبا ، أو مجازا كذلك وهكذا . فالبلاغة العربية بوضعها الراهن - كما يقول أحد

اجل . . . فاهداف البلاغة ان نعرف بها اعجاز القرآن وان تعلمنا الانشاء الصحيح !! وكلا الهدفين لا يمكن ان تؤديهما البلاغة العربية بصورتها الحالية - لما سيأتي في الفقرة التالية - فقط أقرر هنا أن الهدف الثاني منهما يقف في طرف مخالف تماما للروح الادبية والعلمية ، ذلك أن الادب ليس قواعد ينتج الاديب على اساسها ، ولكنه استعداد فني لدى الاديب ينميه النقد البناء لانجاحه ، مع موااة هذا الانتاج وهذا النقد ، ولا اتصور أدبياً اصيلاً يتوقف ليسائل نفسه عن قواعد البلاغة لكي يتوافق معها فيما يقدمه من اساليب وافكار ، وبعبارة أخرى : أن الانتاج الادبي طبع يسنده النقد ، وهو سابق على القواعد والتقنين . وهذا نفسه هو روح المنهج الاسفرائي السائد الآن في البحث العلمي الذي يقرر ان الانتاج اولا ثم يكون التفسير ، فالاستفراء يكون لما هو كائن بالفعل لا لما يجب أن يكون ، وهو منهج يتسم بالتسامح وعدم التحكم . ولكن شاء البلاغيون ان يجعلوا هذا العلم للافدار على « نسج جيد الكلام » و « تعليم الانشاء الصحيح » فجانبهم التوفيق فيما انتجوه وفيما هدفوا اليه .

- { -

من الاسباب التي أدت الى عقم البلاغة وتجمدها انها تأثرت أبلسغ التأثير بالابحاث الفلسفية التي تأثر بها الباحثون العرب في وقت مبكر مع نشأة العلوم العربية ونمت معها نموا وصل في العصور المتأخرة الى حد التحمل والتكلف ، والى درجة جعلت الدراسة في علم كالبلاغة مجهوداً مضنياً للعالم والمتعلم على السواء ، واذا كان هذا المجهود يبذل فقط في الفهم والمعرفة ، فكم مؤسفا ان ما نفهمه وما نعرفه مما لا علاقة له بالادب ولا بالفن الاصيل .

وفي يدي من نرائنا البلاغي المتأخر « شروح التلخيص » وهي خمسة مرتبة في الصفحة الواحدة ترتيباً تنازلياً على طريقة الانهر - وكلها تشرح ملخصاً لكتاب « المفتاح » وضعه الخطيب الفزويني ، وقد فحنت أحد أجزاء هذا الكتاب ، فوجدت أمامي حديثاً عن أدلة الحذف في مثل قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) فقد قال الملخص : العقل يدل على الحذف ، والمقصود الاظهر - هل سمعت به !! - يدل على المحذوف ، وجاء

(٨) الاسلوب ص ٧

اطاب منشورات

دار الاداب

في الاردن

من

المكتب التجاري

لصاحبه محمد موسى المحنسب

القدس - تلفون ٤٤٦٥

عمان - شارع الملك حسين - مقابل بنك انترا

(١٠) راجع : بلاغة أربيلطو بين العرب واليونان ص ٣١ .

(٩) شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٠٥ .

الدارسين لا تكاد دائرتها تتعدى البحث في مظاهر الجمال الحسية والمعنوية في الجملة ، من حيث مفرداتها وتأليف هذه المفردات وترتيبها الى البحث في مظاهر الجمال للقطعة الادبية المتكاملة .
والحقيقة ان البلاغة لا تبحث لها في الجمال على الاطلاق ، ولو كانت بحثا في الجمال - حتى في نطاق الجمل والمفردات - لارتبطت بالنص كله - ربما بقوة الدفع الذاتي - وقدمت للذوق والادب ما هو اجدى مما هي عليه الآن .

- ٥ -

والآن ... ما هو الحل ؟؟

هناك طريقان يردان على الذهن تجاه مشكلة البلاغة ، اولهما هو طريق الاصلاح والترقيع ، والثاني هو طريق المواجهة الجذرية للمشكلة ، نضع فيه ابحاث البلاغة في مناخ جديد تنفس فيه بعمق وحيوية والاول يعتمد على ان نصفي دراسة البلاغة مما فيها من الخلط والاضطراب ، وان نلقي ما نستصفيه من دراستها على ما هو عليه الآن بنفس التقسيمات والمتهج ، اما الثاني فيعتمد على ان نواجه ابحاث البلاغة العامة مواجهة صريحة وجريئة ، لكي نوجهها الوجهة التي تتفق مع مناهج الدراسات الادبية واللغوية الحديثة .

وانا اختار الطريق الثاني ، لان الاول لن يحل المشكلة حلا نهائيا ، حيث ستبقى الروح العلمية المتخلقة - حتى مع هذا الاستصفاة - موجودة في المادة العلمية نفسها ، وتبقى جذورها - شئنا او لم نشأ - صارية في اعماق الدراسة القديمة بما فيها من تعقيد وآلية .

والمعلوم ان الابحاث العامة في علم البيان تتلخص في : التشبيه والاستعارة والكناية ، والحقيقة والمجاز - اما ابحاث علم المعاني عن : المسند اليه والمسند ، والقصد والخبر والانشاء وانواعهما والفصل والوصل ، والاجاز والاطناب والمساواة - ويتبعهما علم البديع .

وسأتناول هذه الابحاث في مستويات ثلاثة :

١ - التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الادبية في النقد الحديث .

٢ - الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة .
٣ - ابحاث علم المعاني ونظام الجملة وفن التركيب في الدراسات اللغوية الحديثة .

لنرى كيف يمكن لهذه الابحاث ان تؤدي دورها في وطنها الجديد فتستفيد وتفيد .

اولا : التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الادبية .
من غير المعقول ان استعرض هنا في هذا البحث الموجز فكرة المذاهب الادبية المختلفة عن الصورة الادبية من كلاسيكية ورومانتيكية وبرناسية ورمزية وسيربالية ونفسية وغيرها - فلذلك ابحاثه ومواضعه الاخرى - لكنني اشير فقط الى بعض الخطوط العامة التي افندناها من هذا الجهد الادبي الفني فيما نحن بصدد زعمه من دراسة هذه المباحث البلاغية ضمن هذا الاطار .

من ذلك ان الصورة الادبية لا يلزم ان تكون الفاظها او عباراتها مجازية - كما هو رأي علماء البلاغة - بل تكون الالفاظ والعبارات احيانا حقيقية وتصور المشهد او الموقف النفسي تصويرا فنيا صادقا يدل على خيال خصب ، من ذلك مثلا قول القرآن (ولو ترى اذ الجرهمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ، ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انما موقنون) فجميع الالفاظ في هذه الآية حقيقية الاستعمال ، ولكنها مع ذلك تصور مشهدا حزينا من مشاهد القيامة ، وهو الموقف الدليل للمجرمين (ناكسو رؤوسهم) يزيده ذلة أنهم (عند ربهم) بل ان حديثهم كذلك ذليل يصور أميانتهم المحرومة البعيدة المنال (ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا) وآني يكون الرجوع بعد فوات الاوان !!

ومن ذلك أيضا قول « أبي صخر الهذلي » في حبيته :

ويعني من بعض انكار ظلمها اذا ظلمت يوما وان كان لي عذر
مخافة آني قد علمت لئن بسدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وآني لا ادري اذا النفس اشرفت علي هجرها ما يبلغن بي الهجرس

فليس في هذه الابيات الثلاثة كلمة مجازية باسلوب البلاغة ، ولكنها مع ذلك تصور بصدق أزمة « أبي صخر » النفسية ، اذ تظلمه حبيته احيانا ، فيقلب على امره ، ولا يستطيع حتى « بعض الانكار » مع ان الحق في جانبه لو انكر « وله عذر » ولكنه لا يستطيع !! ويقدم لنساء مبررات ضعفه في خوفه من هجرها حقيقة « وماله على هجرها صبر » بل رهبته من نفسه هو اذا قاربت الهجر واشرفت عليه ، وما يسببه له ذلك من آلام ومتاعب ، فما بالك بالهجر نفسه « ما يبلغن بي الهجر » وهو بذلك يشير فينا الاشفاق عليه واعذاره في ضعفه بدلا من الحنق عليه والاسف من جبنه !!

وبهذا الخط العام نرى ان دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث تتسع لدراسة اشمل بكثير مما قصرته الدراسات البلاغية القديمة على التشبيه والاستعارة والكناية . وهي فكرة لا تزال شائعة لدى كثير من العاكفين على دراسات السلف وحدهم .

من هذه المبادئ ان تكون الصور في العمل الادبي مرتبطة بالتجربة - على معنى ان تجسد الصورة فكرة او عاطفة مما يشير التجربة المتناولة نفسها من أفكار أو عواطف ، والا كانت افتعالا مزيفا يدل على براعة العقل وقوة التخيل ، ولكنها في نفس الوقت تفتقد الصدق ولا تفيد شيئا اذ تدل فقط على « فهلوة » العقل والخيال ان صح هذا التعبير « فالصورة جزء من التجربة ، ويجب ان تتأزر مع الاجزاء الاخرى في نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعا وهذا قدر مشترك بين المذاهب الادبية الحديثة » (١١) .

وفي ضوء ذلك يمكن ان نقدر قيمة كثير من التشبيهات والاستعارات التي اعتمد بها البلاغيون فراحوا يحلوننا معجبين ، مع انها عارية تماما عن الصدق والفن . من مثل :

فان تفسق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الفزال
وقول الفرزدق يرثي ابيه :

بفي الشامتين الترب ان كان مسني رزية شبلي مخدر في الصراغم
وما احد كان المنايا وراه ولو عاش اياما طوالا بسالم
يذكرني ابني السما كان موهنا اذا ارتفعا فوق النجوم العوام
ففي البيت الاول احتجاج عقلي لتفوق الممدوح على الناس (بان المسك بعض دم الفزال) وهو احتجاج مزيف ، وتجربة الفرزدق هي « فقد ابيه » وما يشره ذلك من اشجان واحزان ، ولكنه راح يتحدث عن الاشبال والاسود والسماكين والنجوم ، وهي صور منشؤها قوة التخيل ولكنها كاذبة ضعيفة التأثير لانفصامها عن تجربته .

ومن رأي النقد الحديث ايضا ان الصور الادبية في النص ينبغي ان تكون تجسيدا قوي الصلة بالمشاعر التي تسيطر على النص كله ، وان يكون التيار الذي يرفدها من داخل العمل الادبي نفسه ، فتصبح بذلك دلالة على قوة هذا الشعور وعمقه ، فهي فورة من فوراته الفنية تجسدت في صورة حسية قوية ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بالشعور كانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا وكلما بعدت عن ذلك انقطع التيار الذي يمدها بالحيوية والحياة .

وفي ضوء هذا المبدأ يتبين ان كثيرا من التشبيهات والاستعارات التي تدل فقط على البراعة الحسية دون ان يكون وراءها شعور يفذيها - وهو الشعور الذي يسيطر على النص كله - لا قيمة لها في الميزان النقدي الحديث ، ومن ذلك مما درسناه في البلاغة :

النشر مسك والوجه دنانير ، واطراف الاكف عنم

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا ، وعضت على العناب بالبرد
وكم جهدنا في معرفة هذه الوجوه البيانية وابعادها ؟؟ ومثلها ركام هائل في الشعر العربي نفسه وفي دراسات البلاغة القديمة .

ويتبين كذلك في ضوء هذا المبدأ ان مجرد الصنعة البلاغية في بيان اطراف التشبيه ووجه الشبه « الجامع في كل » واجراء الاستعارات - التتمة على الصفحة ٥٠ -

البلاغة العربية

– تنمة المنشور على الصفحة ٢١ –

بمظاهرها المختلفة وبوسائلها المجهدة عمل لا قيمة له لان اساسه يتسر الصورة الادبية عن تيارها الشعوري والنفسي ، وبعرثتها جثا ميته لا حياة فيها .

وايك هذا النص الثري الموجز الذي أورده المبرد في كتابه «الكامل في اللغة والادب» لتوازن في صورة بين منهج البلاغين ومنهج النقد الحديث .

قال ابو العباس : ومما يؤثر من حكيم الاخبار وبارع الاداب ما حدثنا به عبد الرحمن ابن عوف انه قال : دخلت يوما على ابي بكر الصديق رضي الله عنه في علته التي مات فيها ، فقلت له : اراك بارئاً يسا خليفة رسول الله (ص) .

فقال : أما اني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين اشد علي من وجعي ، اني وليت اموركم خيركم في نفسي ، فكلمكم ورم انه ان يكون له الامر دونه ، والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتأمن النوم على الصوف الازدي كما يالم احدكم النوم على حسك السعدان ، والذي نفسي بيده لان يقدم احدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البحر .

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله (ص) فان هذا يهيضك الى ما بك ، فوالله ما زالت صالحا مصلحا ... لا تأس على شيء فانك من امر الدنيا ... ولقد تخليت بالامر وحده فما رأيت الاخيرا .
فهذا النص من نوع المحادثة الادبية بين صحابيين جليلين هما ابو بكر وابن عوف – وموضوعه مرض ابي بكر ووصايته بالخلافة لعمر ، وما أثاره ذلك من حفيظة المهاجرين .

فقد دخل « ابن عوف » على « الصديق » وهو يحمل مشاعسر الجواسي ، أما ابو بكر فمتألم حائق مما هو فيه من مرض بدني وشعور نفسي ممرض ، وقد عبر كل منهما عن مشاعره بصدق ، فبعد الرحمن يواسي الصديق عن الامه البدنية اولا بما يجمل بالمقام من الحديث عن الصحة والعافية (اراك بارئاً يا خليفة رسول الله) ، ويسرد ابو بكر بعبارة قصيرة عن آله الجسمي (اني على ذلك لشديد الوجع) ثم يلتفت بسرعة الى آله النفسي فيطيل الحديث عنه دلالة على شدة سيطرته على نفسه ، وعظم اهميته بالنسبة له ، مينا ان الذي اثار حفيظة المهاجرين واعتراضهم عليه انما هو حب الدنيا ... وارادة الفتنة – واخيرا ياتي دور ابن عوف فيواسيه مرة ثانية عن آله النفسي بعد ما واساه عن مرضه البدني ، فيقول له : هون عليك الامر (فان هذا يهيضك الى ما بك) فيهدئه بعض الشيء ، ثم يهدئه تماما بعد ذلك بوصفه (بالصلاح والاصلاح) وانه لم يخطيء في اختياره (فما رأى الاخيرا) ولقد اختار فأحسن الاختيار .

ففي هذا النص يتسلسل الشعور تسلسلا طبيعيا لا تكلف فيه ولا افتعال ، وهو من ناحية ادائه اللفظي ترتبط فيه الكلمات والعبارات في مدلولاتها وايحاءاتها بتلك المشاعر ارتباطا ناميا دون حشو او توقف ثم تنساب تلك العبارات في سهولة ورفق دون طنطنة او صجيج – وذلك مناسب تماما لموقف المحادثة الجادة بين الاصدقاء – وفي خلال ذلك تتناثر فيه بعض الصور البلاغية التي هي موضع حديثنا هنا وهي (كلكم ورم انه – يخوض غمرات الدنيا – ان يقدم احدكم فتضرب عنقه خير له من ان يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البحر) .

فماذا يفعل البلاغيون لو افترضنا تناولهم لهذا النص وتلك الصور؟؟

– انهم يعزلونها اولا عن الموقف والشاعر التي تؤديها النص ، ثم يتحدثون عنها بعد ذلك هكذا :

✽ كلكم ورم انه : كناية عن الفضب ، وهي من النوع الذي يذكر فيه اللازم ويراد المزموم .

✽ يخوض غمرات الدنيا : يدخل فن الفتن وفي الفعل استعارة تبعية وفي الغمرات استعارة اصلية (يجرونها) .

✽ عبارة لان يقدم الخ : فيها تشبيه ضمني مركب ، يحددون هيئانه وأجزائه .

اما النقد الحديث فيعتبر تلك الصور في امكانها التفانات جانبية ذات صلة طبيعية بمجرى الشعور الساري في كيان النص كله ، ففي عبارة (كلكم ورم انه) نحس ان ابا بكر قد اشعرنا بالتشويه النفسي الذي دفعهم للفضب والانتهاج بتلك الصورة التي يتضح فيها التشويه البدني – صورة أتوفهم التي تضخمت حتى اساءت الى وجوههم – فاذا انقلنا الى من (يخوض الغمرات) وما تبعه من (يا هاوي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البحر) نحس حقا رهبة الدخول في الفتن بما تجسد امامنا من صور الظلمات والخائضين فيها ... والتمدد في السير ليلاً وقد ضل الطريق مع ما يترقبه من شر وهلاك ، وكل ذلك يجسد حقيقة المأساة التي يخشاها ابو بكر ، ويحذر منها ، وهي الدخول في الفتنة .
اجل ... فالنصوير ان ارتبط بمضمون النص بتلك الايحاءات الجسدية مما لا تؤديها المبارات في مستواها العرفي الحقيقي ، فهو صادق فيها، والا كان افتعالا لا قيمة له ، وحشوا لا فائدة فيه وهكذا تجب دراسته .

واخيرا ... فليس من الممكن – في هذا البحث الموجز – ان استمر في عرض ما افدناه من هذا التراث الانساني في دراسة الصورة الادبية – فهو كثير – مع الموازنة بين ذلك وبين تركتنا البلاغية القديمة ولكني اكتفي بما قدمته معتقدا ان من الانصاف والوفاء لبحوث التشبيه والاستعارة والكناية في البلاغة العربية ان تصفي نفسها ، ثم تضم بعد ذلك الى دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث لتستفيد وتفيد .
ثانيا : الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية .

تبين – في الفقرة السابقة مباشرة – قيمة المجاز البلاغي في مستواه الفني ، وكيف يمكن لدراسته ان تكون مجدية في مستواها الجمالي باعتبارها جزءا من دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث ، وهنا نتناول محبت الحقيقة والمجاز – وهو أحد مباحث البلاغة الهامة – في مستوى آخر موضوعي هو المستوى الدلالي ، اذ ان الحقيقة والمجاز ليستا سوى مظهر « للتطور الدلالي » لا في اللغة العربية وحدها ، بل في كثير من لغات العالم ، ولذلك فان بحثهما الان يندرج تحت فرع من فروع الدراسات اللغوية الحديثة وهذ « علم المعنى او الدلالة Semantics » وبتحديد ادق في البحث عن « تطور الدلالة » .

لقد قسم علماء البلاغة الاقدمون الالفاظ الى حقيقة ومجاز مفترضين ان هناك واضعا اول قد وضع الالفاظ لمعان معينة ، فاذا استعملت هذه الالفاظ في معان اخرى غير ما وضع اولا خرجت عن حقيقتها الى المجاز، كما جاء في شروح التلخيص : ان الحقيقة هي الدلالة الاصلية للفظ من الالفاظ في معان اخرى غير ما وضع اولا خرجت عن حقيقتها الى المجاز، به غير المعنى الاصل الموضع له في أصل اللفظ – وينقل السيوطي عما لقبه « بالامام واتباعه » قوله : « المجاز خلاف الاصل : لانه يتوقف على الوضع الاول والمناسبة والنقل ، وهي أمور ثلاثة ، والحقيقة على الوضع وهو احد الثلاثة ، فكان اكثر » (١٢) .

وعلى الرغم من ذلك فان علماءنا الاقدمين – ومنهم البلاغيون – قد اختلفوا تماما في تقسيم الفاظ اللغة بين الحقيقة والمجاز والانحياس الحاسم الى احد الجانبين أو الاخذ بكليهما ، بل قد اختلفوا ايضا في دلائل الفرق بينهما في حديث طويل ليس هنا مجال ذكره .

والسبب في هذا الاختلاف والاضطراب يعود الى ان فهم الحقيقة والمجاز لديهم قد قام على اساس هي :

١ - افتراض الواضع الاول للغة ، او بعبارة اخرى افتراض التوفيق في نشأتها ، سواء اكان ذلك المنشىء هو الله او الانسان . كما هو واضح في تحديد معنى السابق لكل من الحقيقة والمجاز .
٢ - اعتبار اللغة عصرا واحدا في تحديد دلالة الالفاظ والاستشهاد بهما .

٣ - اغفال العنصر الاجتماعي في تحديد مدلولات الالفاظ ، للتفريق بين الحقيقة والمجاز .

وببيان هذه الامور الثلاثة - لا غير - من وجهة النظر اللغوية الحديثة تنصح الاخطاء المنهجية في دراسة الحقيقة والمجاز لدى البلاغيين خاصة والاقدميين عامة ، كما يتضح أيضا ما نزعهم من وجوب دراستهما في علم اللغة لا في البلاغة .

ان القول بالواضع الاول للغة يرتبط بالبحث في نشأة اللغة التي وجدت من الباحثين القدماء - العرب والاجانب - عناية كبيرة ، فتشعبت الآراء ، وكثرت وجهات النظر ، ولكن منذ القرن الثامن عشر لم يعد لهذا البحث قيمة علمية لدى اللغويين الحديثين ، اذ كتب Herdar في هذا القرن يقول في كتابه : « معجزة نشأة اللغة » لقد اخترعت اللغة بوسئ الانسان الخاصة ، ولم تتكر بصورة آلية بطريق التعليمات الالهية ، لم يكن الله هو الذي اخترع اللغة للانسان ، ولكن الانسان نفسه هو الذي اضطر الى اختراعها بطريق ممارسة قدراته الخاصة .
واضيف الى ذلك ان اللغة لم تتكر بطريق التوقيت ايا كان ، فليس هناك واضع اول - الهى او بشري - يتوقف عليه وضغ الالفاظ او دلالتها ، بل ان البحث في نشأة اللغة - عموما - لا يسوذن له الآن بالدخول في المنهج الحديث اذ هو بحث غيبي لا يدخل في امكن الباحث ويتقرر هذه الحقيقة بتبين قيمة الاساس الاول الذي يفترضه علماء البلاغة في دراستهم للفكرة ، فافتراض الواضع الاول لدلالة الالفاظ - وعلى اساسها تكون الحقيقة وتغيرها يحدث المجاز - افتراض قد جانبه التوفيق .

اما اعتبار اللغة عصرا واحدا في تحديد دلالة الالفاظ وفي الاستشهاد بها مع أنها تمتد آمادا بعيدة في الجاهلية وفيما تلاها من قرون - هذا المدى الزمني الطويل لم يدرس بهذا الوصف بل درس على أنه مدى واحد ، ومرحلة واحدة ، فاذا اخذنا في الاعتبار مع ذلك ان اللغسة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار ، وان لكل مرحلة منها خصائص مستقلة في الدلالة وفي غيرها ، قد تكون جديدة تماما او متجددة عما سبقها لتبين لنا السبب في اضطراب منهج الاقدميين ، واعتبارهم الالفاظ كلها حقيقة او كلها مجازا ، اذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي ينسى مع هذا المدى الطويل - ومن هنا جاء القول بأن كل الالفاظ حقيقة - كما يحدث العكس أيضا ، اذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي يذكره بعض العلماء - ومن هنا ما قيل من أن كل الالفاظ مجازية .

والخلاصة ان هذا الاساس الثاني أيضا مما أخذ في اعتبار البلاغيين - وغيرهم من علماء اللغة - اساس قد جانبه أيضا التوفيق .

اما الفكرة الثالثة - وهي العنصر الاجتماعي في دراسة الحقيقة والمجاز - فقد اغفله البلاغيون العرب ، مع أنه هو اساس الفهم المتطور الحديث لفهم الدلالة ، بل ودراسة اللغة كلها ، ذلك ان فهم الحقيقة والمجاز يرتبط بالفرد الذي يسمع الالفاظ أو يقرأها ، فهو وحسده الحكم في نوع دلالة اللفظ ، ويعتمد حكمه على تجاربه مع الالفاظ وعلى الوسط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه « لان الحقيقة لا تعدو ان تكون استعمالا شائعا مألولا للفظ من الالفاظ ، وليس المجاز الا انحرافا عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يشير في ذهن الفارئ او السامع دهشة أو غرابة أو طرافة» (١٢) وبالرغم من أن ذلك مرتبط بالفرد ، فان الامر لا يتوقف عليه فقط ، بل نجد قدرا من الاشتراك في هذا الاثر النفسي الذي يحدد مستوى الدلالة للالفاظ ، وعلى اساس هذا الاشتراك يكون الحكم العام بحقيقة الالفاظ أو مجازيتها « فاذا ما تبسورت الكلمة ،

وتحدد معناها الجديد في البيئة الخاصة كان لا بد لها في الوقت المناسب ان توسع دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة في الاستعمال العام » (١٤) فالدلالة تعتمد على الفرد اولا مرتبنا بوسطه الاجتماعي والثقافي ثم على المجتمع كله بعد ذلك الذي تتحرك الالفاظ فيه ، فهو وحده الحكم في شيوع هذه الدلالة واعطاء الالفاظ دلالتها الجديدة .

ويكمل هذه الفكرة بملاحظة فكرة ثالثة وهي التطور المستمر لكل مظاهر المجتمع - ومنها اللغة - وبناء على ذلك تتغير الدلالة الشائعة في جيل معين وبيئة خاصة الى دلالة اخرى اذا توفرت لها الظروف الفردية والاجتماعية السابقة « فالمجاز القديم مصيره الى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها الى الزوال والاندثار ، وتبقى اذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال الى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالي» (١٥) .

هذا هو فهم اللغوي الحديث لفكرة الحقيقة والمجاز ، وهو فهم يعتمد على طبيعة اللغة الاجتماعية ، وهو أيضا فهم متسامح لا تحكم فيه يقف به الدارس وراء اللغة في عصورها المختلفة لدراستها وفهمها ، ولا يفرض عليها حسما لا تحتمله طبيعتها المتطورة بالاستعمال ، التغيرة على مدى العصور .

ولا يمكن هنا - في هذا البحث الصغير - التعرض لكل دراسات اللغويين الحديثين عن « تطور الدلالة » من عوامل تطورها ومظاهرها ، وكيفية تعدد المعنى ، والموازنة بين ذلك وبين دراسات الاقدميين من علماء اللغة والبلاغة ، ولكن حسبي فيما قدمت أنه اشارة الى الموضوع الصحيح الذي ينبغي ان تدرس فيه فكرة الحقيقة والمجاز في مستواها الدلالي ، لتكون دراستها مجدية ومتطورة ، وهو « علم الدلالة فسي الدراسات اللغوية الحديثة » .

ثالثا : علم المعاني ونظام التراكييب في الدراسات اللغوية .

لعل أول تساؤل يرد على الذهن هنا هو : لماذا سمي هذا العلم البلاغي باسم « المعاني » ؟ وما مدى انطباق بحوثه المختلفة على هذا الاسم؟ - ويتصفح مصادر هذا العلم القديمة وتوابعها وتامل التعريفات التي أوردوها له نجد أن المعاني التي يهتم بها البلاغيون هي الظروف واللابسات التي تحيط بالتكلم والسماع ، حيث تستدعي هذه الظروف طريقة خاصة في تأليف الجملة ونظام التركيب اللغوي ، وعلى سبيل الممثل يذكر المسند اليه لمان معينة ، كما يحذف لدواع اخرى ويعرف لظروف خاصة ، وينكر لاخرى وهكذا .

والحقيقة ان مادة الدراسة في هذا العلم ليست هي هذه المعاني فقط ، بل ان مادته تشمل كذلك - ربما بدرجة اهم - كيفيات التراكييب وطريقة نظمها ، أو بعبارة أوضح : الصور المختلفة التي ترد عليها من توكيد ونفي واستفهام وقصر وفصل ووصل وغير ذلك ، فبحوثه اذن موزعة بين هذين الامرين ، كما جاء في شروح التلخيص « انه علم يعرف به المعاني التي يصاغ لها الكلام وهي المدلولات العقلية المسماة بخواص التركيب » (١٦) او كما يقول ابن مالك « هو تتبع خواص تراكييب الكلام وقيود دلالاته ليحترز بالوقوف عليها من الخطا في تطبيق الكلام » (١٧) .

وساقدم هنا - باختصار - الرأي في كلا الامرين السابقين اللذين يقوم عليهما هذا العلم ليتضح في ضوء هذا الرأي .

١ - قيمة معاني البلاغيين التي جهدوا فيها في خدمة النصوص الادبية وتفسيرها .

٢ - تطور علم التراكييب أو تنظيم الكلام Syntax في الدراسات اللغوية الحديثة بما يشمل - فيما نزعهم - معظم ابحاث المعاني البلاغية

(١٤) دور الكلمة في اللغة ص ١١٧

(١٥) دلالة الالفاظ ص ١٢٧ .

(١٦) شروح التلخيص ج ١ ص ١٥١ .

(١٧) المصباح ص : ٣

(١٢) دلالة الالفاظ ص ١٢٥

في تأليف الكلام ،

ان الدراسة الادبية تبحث عن عناصر الجمال الموجودة في النص نفسه ، سواء في جنسه الادبي أو تجربته أو ما يثار حول التجربة من مشاعر ومعاني أو البناء الفني وما فيه من امكانيات للنمو بالعمل الادبي أو تجده ، والبحث في ذلك يكون باستشفاف روح النص نفسه ، ومعاشسته وجدانيا ، اما دراسة الظروف العامة والخاصة التي تحيط به ، فانما تعتبر فقط عوامل مساعدة على الفهم والتفسير ، أو بعبارة أخرى : أنها من العوامل ذات الصلة .

لكن علم المعاني البلاغي دار كله حول هذه الظروف والملابسات والغريب حقا انها لم تكن ظروفًا فنية أو وجدانية ، حتى تقدم للادب شيئاً مفيداً ، بل وصفت في شروح التلخيص « بأنها مدلولات عقلية » ووصفها ابن مالى « بأنها قيود للدلالات » فهي خاضعة اذن لجفاف العقل وسطوته ، لا لسفافية الوجدان وجماله ، وهي قيود للدلالات تمنعها من التفتح ... والايحاء والرفافة ، يقول الاستاذ ماسينيون في بحثه بمجلة المجمع : فلم المعاني الحق ليس المقصود به جلب القلوب بلطائف التعبير بل قبول العقول والاذهان للافكار الصحيحة . وتصديقها بعد تصورها . - والبحث في الافكار الصحيحة وتصديقها بعد تصورها من خلال الجمل انما هو من عمل المنطق في عنايته بالقضية المنطقية وتصورها وقد كان له - كما سبق بيان ذلك - تأثير كبير في البلاغيين ودراساتهم .

والانسان ياخذ العجب حتى الدهشة حين يجد هذه المعاني البلاغية من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء للنصوص الصحيحة الى الحد الذي تصطنع فيه كل من المعاني والشواهد اصطناعيا فالسند اليه يتقدم لاسباب معينة ، كالتمكين في ذهن السامع والتعجيل بالمسرة أو المساءة والتعظيم والتحقير والتبرك وغير ذلك ، وتكرر نفس هذه الاسباب في تقديم المسند ، بل في غيره من المواضيع ، اما ضعف الاستقراء فيتضح في افتراض تراكييب لم تحدث في القرآن والنصوص الصحيحة ، كما في بحث (تقدم الحال من المتعلقات) وبناء معان على هذه التراكييب المفترضة ، واختلاق امثلة وشواهد لذلك ، وكذلك في مبحث (الفصل والوصل) وغير ذلك .

والخلاصة أن هذه المعاني - بما هي عليه لدى البلاغيين - مدلولات عقلية فيها من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء ما يعزلها عن كل من دراسة اللغة والادب على سواء .

اما عن الفكرة الثانية فان علم التراكييب Syntax من اهم فروع الدراسات اللغوية الحديثة ، بل هو غاية الفروع الاخرى التي تسبقه في تحليل النص اللغوي على مستوى الاصوات Phonetics والحروف Morphology والعرف Phonemes ويقابله في دراساته التقليدية الآن علم النحو .

وهذا الفرع من فروع الدراسات اللغوية مهمته البحث في خواص التركيب وكلماته من كيفية تأليفها ومواقعها وموقف كل منها من الاخرى من حيث الموقع ، وعلاقته كل منها بالآخرى من حيث الوظيفة ، فيرى اولمان Uilmann ان دراسة وظائف الوحدات اللغوية يختص بكل منها علم من العلوم والذي يختص بدراسة وظائف التراكييب هو علم النحو ، وهذه الوظائف تشمل دراسة التركيب من حيث تأليفه ، وعلاقة الكلمات بعضها ببعض الاخر .

واذا نحينا جانبا الفهم الشائع عن نحونا العربي من أنه لدراسة الاعراب واواخر الكلمات فقط فان هذا الفهم اللغوي الحديث يتفوق الى حد كبير مع واقع ما في كتب النحو ، ومع الفهم الذي فهمه به كثير من علمائنا الاقدمين .

فمثلا اذا تصفحنا بابا مثل باب المبتدأ والخبر نجد ابجائه الرئيسية تدور حول التطابق بين المبتدأ والخبر من حيث الجنس والعدد ، وموضع كل منهما من حيث التقديم والتأخير ، ووجودهما في الكلام أو غياب احدهما ، وتعدد الاخبار - فمعظم هذه الابحاث انما هي في التركيب اللغوي واسراره وتكوينه . وقد فهم كثير من أئمة النحاة القدماء مهمة النحو العربي بهذا المعنى ، وعبد القاهر الجرجاني اشهر من أن يذكر

بذلك ، وقبله ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه « مجاز القرآن » ويقول ابو سعيد السيرافي : معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكانه ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، ويسن تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وغيرهما - فالنحو في رأيه يبحث في الحركات والسكنات والحروف وكيفية تأليف الكلام ، فمهمته لا تقتصر فقط على ضبط اواخر الكلمات . (١٨)

بهذا الفهم الموجز المركز لعلم التراكييب في الدراسات اللغوية ، ومدى اشفاقه مع ما لدينا من تراثنا العظيم ، تعلمي لا تتجاوز الحقيقة اذ اشير بضم دراسات علم المعاني فيما يختص بنظام الجمل والتراكييب الى الدراسات اللغوية ، وهي دراسة متطورة نامية يمكن ان تفيد منها بحاث البلاغيين .
وبعسد :

فاذا كان هذا البحث جريئا ، فهي جراءة يسندها الحق فيما اعتقد وهو - كما قلت في بدايته - رأي يستند الى دراسة علمية متطورة في اللغة والادب ، وربما قد جانبني فيه التوفيق ... ولكني مجتهد !!

محمد عيد

القاهرة

المراجع حسب درودها في البحث

- ١ - قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة
- ٢ - مقدمة ابن خلدون
- ٣ - شروح التلخيص
- ٤ - المصباح ابن مالك
- ٥ - الاسلوب احمد الشايب
- ٦ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دكتور ابراهيم سلامة
- ٧ - النقد الادبي الحديث دكتور محمد غنيمي هلال
- ٨ - الزهر في علوم اللغة وأنواعها السيوطي
- ٩ - دلالة الالفاظ دكتور ابراهيم انيس
- ١٠ - دور الكلمة في اللغة (اولمان) دكتور كمال بشر
- ١١ - الامتاع والمؤنسة ابو حيان التوحيدي

(١٨) راجع : الامتاع والمؤنسة ج ١ ص ١٢١ .

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

- ١ - الادب الملتزم ٥٠٠ ق.ل
- ٢ - ادباء معاصرون ٤٠٠ ق.ل
- ٣ - جمهورية الصمت ٤٠٠ ق.ل
- ٤ - قضايا الماركسية ٤٠٠ ق.ل
- ٥ - المادية والثورة ٤٠٠ ق.ل
- ٦ - جمهورية الصمت ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب